حركة وطنية فلسطينية. وكما يقول الناقد يوسف اليوسف: «اذا كان فحوى ما تبقى لكم، من حيث مستواها الظاهري، هو تحرير الارادة المعتقلة تاريخياً، لا تحقيقها، لا انتصارها الكامل على نقيضها؛ الأمر الذي يعكس تماماً مرحلة من مراحل التاريخ الفلسطيني، فاننا ندرك لماذا أسدل غسان الستار على علاقة حامد بالجندي الصهيوني. ها قد تحررت المشيئة الوطنية، وها قد بدأ الصراع من جديد. أما حسم هذا الصراع، فهو متروك للتاريخ، وان يكن غسان قد أفصح عن كيفية اتجاه هذا الحسم، وذلك بتفوق حامد على الجندي»[١٩]. فان تحرر المشيئة الوطنية من قيودها هو ما تنبني في مساره كتابة غسان في هذه الفترة التي سبقت هزيمة حزيران (يونيو) ١٩٦٧، وسبقت تصاعد حركة المقاومة الفلسطينية بعد الهزيمة مباشرة... وهو تحرر توحي به قصص غسان القصيرة في مجموعها المكتوبة قبل الهزيمة والصادرة في مجموعته «عن الرجال والبنادق» عام ١٩٦٨.

ان هذا المسار من تحرر الذات، الى تحرر الضمير الوطني الجمعي، هو مسار تطور القضية تاريخياً، والذي ترسمه الكتابة الكنفانية في تطورها الفني والأدبي، وهو ما يشبكها مع فترتها اللاحقة وغير المكتملة بموت غسان قبل أن تصل تجربته هدفها الذي تقصده، وهي فترة تصاعد المقاومة بعد الهزيمة مباشرة، اذ أن «أم سعد» في تساؤلاتها عن الفعل الفلسطيني على أرض الواقع وعن دور المثقف في الثورة، و«عائد الى حيفا» واستعادتها للسؤال الجوهري عن النقيض ونقيضه، قد وضعتا الكتابة الكنفانية في حوار حاد مع ذاتها، وهو ما هدف غسان كنفاني الى اثارته... اثارة الأسئلة عن الوجود الفلسطيني في خصوصيته في تجادله مع نقيضه الصهيوني، واثارة السؤال الثوري الفلسطيني في انبثاقه من عالم خصوصيته وانصبابه في كونية الثورة العالمية وبحثها عن التحرر الوطني والاجتماعي... وهذا ما بدا أن غسان قد توصل الى فك تعقداته وتشابكاته في مجزوءاته الثلاث المهمة: «العاشق» و«الأعمى والأطرش» و«برقوق نيسان»، والتي تمثل «العاشق» خصوصاً اعادة صياغة للحركة الثورية الوطنية الاجتماعية الفلسطينية في تبلورها ووصولها الى مشارف ثورة عام ١٩٣٦... ولكن عدم اكتمالها لم يسمح لنا بمشارفة هذا التبلور الرؤيوي عند غسان، لأن السد الذي واجهنا باستشهاده قد قطع عقدة التطور، وهي في طريقها الى حلها.

من الملاحظ أن «العاشق» تبدأ من البدايات الثورية، تاريخياً ومنطقياً، من تاريخ ما قبل عام ١٩٣٦، ومن الفوضوية التي لازمت هذا التوجه... من البطل في تكونه الاجتماعي الأول، أي من الصعلوك الذي تشي نفسيته المتكونة عبر الرواية ووعيه المتجذر في السرد، بأنه سيتحول فيما بعد الى مناضل ثوري... ولكن الانقطاع عند هذا الحد، هو ما يوقف التحليل لهذا المشروع الروائي، وكما يوقف التحليل الذي يمكن أن نعقده لرواية «الأعمى والأطرش» التي لم تكتمل أيضاً. ولكن غسان استطاع فيها أن يحدث نوعاً من التغيير في بنائه الروائي الذي عهدناه، لأنه يلتقط شخصية «الأعمى، والأطرش» ليحل من خلالهما قانون الكون والوجود في تداخله مع قانون الصراع مع النقيض، أي أن الحالة الفلسطينية تنبثق من كونيتها، والميتافيزيقا وتعليل جذورها تؤدي الى الثورة في مستواها الفلسطيني، وتتبع الحوار في هذه الرواية الهامة وغير المكتملة يؤدي بنا الى فهم محركات الثورة وانصبابها في هذا الاطار الذي رواه غسان، من «المعجزات التي يحسبها